العذراء مريم في الشعر العربي

نبذة للاب لويس شيخو اليسوعي

انَّ علو مقام العذراء مريم عليها اشرف سلام في فلك الكنيسة ومناقبها الفريدة وفضائلها السامية لمَّا شحذ قرائح الشعراء في كل زمان بين الامم النصرانية فلا ترى شيئاً افتخر بنوابغهِ الَّا ذكر عنهم قصائد رنَّانة جادت بها قريحتهم الوقَّادة في مديح تلك التي تدعوها الكنيسة « سلطانة السماوات والارض ». وما الصلوات الطقسيَّة والفرائض الكنسيَّة في كل الطوائف المسيحية في الغالب سوى منظومات رائقة وانشيد شعريَّة بليغة المعاني رقيقة النظم شريفة الالفاظ انشدها آباء الكنيسة اليونانية والسريانية واللاتينية فجاءت من ابدع المآثر العقلية التي يجد فيها الادباء مناهل صافية يستقون منها المعاني المبتكرة والتعابير المنسجمة فضلاً عمَّا يلقاهُ المتعبدون من الغذاء الجوهريّ لترقية ارواحهم وخلاص نفوسهم

ولا يُستثنى الشعر العربيّ من هذا الحكم منذ النهضة الادبية التي ظهرت في بلادنا في اواخر القرن السابع عشر. امَّا القرون السابقة فلا تجد لها في السيِّدة مريم الَّا شعراً نادراً وذلك لاسباب منها انَّ الرُّتب الدينية لم تُقسَّم قبل ذاك العهد باللغة العربية اللهمَّ الَّا في كنائس قليلة للملكيين فلم يجد النصارى داعياً لنظم القصائد الدينية في هذه اللغة. ومنها ايضاً ان الشعراء النصارى الذين سبقوا القرن السابع عشر ضاعت دواوينهم في الغالب او لم يبلغنا من اقوالهم الَّا بعض المتفرِّقات التي لا تتجاوز مضامينها معاني شعراء زمانهم من مدح شريف ورثاء كريم ووصف موصوف حسن او زهد في

دنيا وغير ذلك من المقاصد الادبية. امّا المنظومات الدينية فلم يجد الرواة فائدة في ذكرها. الى غير ذلك من الاسباب التي يطول هنا شرحها على انّنا اذا بحثنا عن تلك الآثار وقفنا على بعض المنظومات التي تنبئ بتعبُّد الشعراء للبتول الطاهرة. واقدم شعر ورد فيه اسم مريم العذراء انّما هو بيت لشاعر جاهليّ يُدعى عمرو بن عبد الحقّ ذكر فيه اسم المسيح ووالدته عليهما السلام:

وما قدَّس الرهبانُ في كل بيعةٍ ... ايلُ الايلينَ المسيحُ بن مريما

ويُروى « ايلُ الايلينَ عيسى بن مريما ». قالوا ومعنى الايل رئيس النصارى. وقالوا هو الراهب. وهذا اصحّ لانّ الكلمة سريانية « آكمـلـا » معناها الزاهد والمتنسك. فجعل الشاعر المسيح كبير النسّاك ومثالهم العظيم

وممّا نجدهُ من بعد ذلك في مجاميع مخطوطة قديمة من القرن الخامس عشر والسادس عشر اناشيد روحية واغاني تقويّة بالشعر العامي كان النصارى يتداولونها ويتغنّون بها في كنائسهم وفي بيوتهم وكانوا ينظمونها زجليّات على اوزان موسيقية عربية او يتّخذون لها الحانًا مشهورة او يترنّمون بها على طريقة ما يدعونهُ بالمعنّى. وفي مكتبتنا الشرقية عدّة مجاميع من هذا الصنف البعض منها بالخطّ العربيّ والبعض بالكرشوني لا يُذكر مصنفوها غالبًا. وهذا مثال اقتطفناهُ منها وهو في اصول صوفيان:

باشرتْ قولا ... قومْ عذّالْ ... في حبّ من لا ... لها مثالْ
قالوا تسلّا ... قلتُ محالْ ... والصبر ولّى ... عن صابني

كم في حماكِ ... مثلي جريحْ ... يرجو لقاكِ ... يا ام المسيحْ
مضنى جواكِ ... نحوكِ يصيحْ ... مريم عساكِ ... نحوهُ تلتفتي

عاين سناها ... موسى الكليمْ ... نارًا اتاها ... نورٌ وسيمْ
فهي اصطفاها ... مولى عظيمْ ... امًّا اختاها ... بالمحبة

فاعجب لبكرٍ طهرًا ستْ إدراكَ فكرٍ يومًا علتْ
شرفًا لقدرٍ حتَّى غدتْ تسمو بقدرٍ كلَّ طغمةِ

ومِمَّن اشتهروا في هذه الزجليَّات في القرن الخامس عشر جبرائيل الاسقف الماروني الفرنسيسي المعروف بابن القلاعيّ من لحفد المتوفَّى سنة ١٥١٦. لهُ مدائح متعدِّدة في والدة الاله منها واحدة طويلة في مولدها العجيب بعد عقر ابويها وبشارة الملك لهما بمريم وحبل القديسة حنَّة بها بريئة من الخطيئة الاصلية ولولا طولها لكنَّا اثبتناها. وامتاز بها شاعر ملكيّ يُدعى ميخائيل بن ساتم لدينا شيء من مدائحهِ في العذراء. ولم نعرف من تفاصيل حياتهِ شيئًا (راجع المشرق ٥ : ١٦٧). وقد عُرف ايضًا احد السريان الكاثوليك كان اسمهُ ضعفي كرنوك حُميلي من آمد ثمَّ سُقف على ماردين باسم طيموثاوس ورحل الى اوربَّة وصنَّف عدَّة كتُب منها كتاب جكلهُ زجليَّات ومدائح تقويَّة طبعت في بادوا في ايطالية سنة ١٦٩٣ بالعربية والايطالية. واكثرها في العذراء مريم كقولهِ من مديحةٍ في مقام الرست:

باسمك يا بتول مريمْ نظمتُ ذا المديحْ لانَّ فيكِ صار خلاص آدمْ
واقتديتِ من الضريحْ لهذا جميع العالمْ اليكِ يزعق ويصيحْ
ابا طهر الطهاره ويا تاج العذاره انتِ شفيعة للتصاره يا ام المسيحْ

الآب من اعلى السما اصطفاكي يا مريمْ والابن منك تجسَّما لخلاص العالمْ
وروح القدس زادكِ اكرامْ في كل الاعصار
انتِ نصري وغاية فخري وفيكِ فكري يا اكثر الفاخر علويا

وكذلك يفتخر الكلدان بمداريش القس خدر الذي عاش في القرن الثامن عشر. وفي مجاميع كل هؤلاء اشياء كثيرة تدلُّ على رقَّة وحسن ذوق وتُقى يجد المؤرخ فيها شواهد ساطعة على اعتصام الكتائب الشرقية بجبل العذراء الطاهرة

*

ومن الآثار المرعية التي سبقت النهضة الادبية ما صنّفهُ احد شعراء الروم الملكيين اسمهُ سليمان بن حسن الغزّي كان مطرانًا على غزّة في القرن الرابع عشر او قبلهُ لكنّنا لم نقف على تاريخهِ بضبط. ولهُ ديوان شعر كأنهُ قصائد دينية حسنة وشعرهُ جيّد مع ما فيهِ من الابيات غير الموزونة. وفي مكتبتنا الشرقية منهُ خمس نسخ مختلفة الواحدة منها كُتبت في القرن الخامس عشر بل قبلًا كما يظهر من خطّها وورقها. وقد وجدنا لمؤلف هذا الديوان في مخطوط يحفظهُ حضرة الاب قسطنطين باشا تاريخهُ سنة ١٦٩٠ م مقالةً مسجّعة عن الايمان عنوانها « برهان الامانة ». وفي ديوانهِ جملة قصائد عن البتول الطاهرة وابنها نختار منها ما يلي. قال في بشارة العذراء:

ألا شرفٌ لمريم في العذارى ... وفخرٌ في جميع الاصفياء
ومن ذا خصَّ غيرك بالبتولة ... هُنيتِ بما خصصتِ من العلاء
اتاها بالبشارة جبرئيلُ ... ملاك السرّ في حُلل البهاء
فقال لها السلام فلا تُراعي ... باركةً تكوني في النساء
بحقّ تقبلين الآن حبلًا ... بفاروق عظيم الكبرياء
يكون لهُ على يعقوب ملكٌ ... الى دهر الدهور بلا فناء
فقالت للملاك وكيف هذا ... وما بشرٌ تقرّب من وداتي
فقال عليكِ روح الله يأتي ... وقوّتهُ تحلُّ من العلاء
ومن تلدين فالقدوسَ يدعى ... وابن الله يُسمى في الملاء
فقالت انني أمَةٌ لربي ... فأقبلُ ما اتيتَ بلا إباء
فصدّقت البشارة بابتهاج ... وتمَّ بذاك قول الانبياء
ولم يخصص بهذا الامر الّا ... لمريم وهي انقى الانقياء
ففخر آل داوُود (كذا) وفخرٌ ... بام النور والدة الضياء
فانَّ لكم جا في الارض مجدًا ... وما بين الملائك في السماء
اليس الخلق كان جميع سقامٌ ... فاضحت مريمٌ سببَ الشفاء
انتهم بالخلاص فاقتدوا ... بذاك من الخطيئة والبلاء
وكان لآدم من قبلُ وعد ... فنَّ على يديها بالوفاء
ألا في ذكرها ابدًا سلامٌ ... جديدٌ في الصباح وفي المساء

تولاها وليٌّ وهو يرجو شفاعتها غدًا عند القضاء

وقال ايضًا فيها من قصيدة طويلة:

يمرمَ أمّ خلاص البشرْ صفا آدم بعد طول الكدرْ
لإطلاق اسرى جميع الشعوب من الموت في ابنها والضررْ
فيا لكِ من ولدٍ اوجبتْ لآدم جبرة ما انكسرْ
جا ثمّ ما اثبت الانبيا وما قبل من اجلها في السيرْ
جميلةُ وجهٍ كشمس الضحا واشرقُ من ضوءِ وجهِ القمرْ
وصورتها في جميع الورى تفوق صفاء جميع الصورْ
تكفّلها زكريّا النبي وكان بنذر ابيها أسرْ
ومرضعهُ عندهُ لم يزل عظيم الحلّ شديد المطرْ
يدلُّ على حلمها صبرُها عن الآب والام عند الصغرْ
نشت في كرامةِ قُدس الاله ومن خلف استارهِ تستترْ

ثم ذكر زواجها بالقديس يوسف الى ان قال في بشارة الملاك اليها:

وشخص الملاك تراءى لها فارعبها وجههُ اذ بدرْ
وقال لها أبشري أبشري فانكِ حبلى بابن البشرْ
فقالت لجبريلَ من اين لي ولادٌ ولم يدنُ مني ذكرْ
فقال لها روح قدس الهي تُظلّكِ مثل ظلال الشجرْ
ويولد منكِ رجاء الشعوب كما قالت الانبيا والنُّذُرْ

وقال في الختام:

ومن بطن مريم نلنا الحياةَ وانهزم الموتُ منّا وفرّْ
وصارت ذخيرتنا في المعاد الى فوز إتمامِ المذخّرْ
لقد رحم الله انسانهُ ومنهُ اليهِ اعاد النظرْ
ظفرنا برفعة ملك السماء ولولاكِ ما صحّ فينا ظفرْ
فطوباكِ طوباكِ يا من جما نجدّد ما كان منّا دثرْ
فطوبى لمستشفع في الصلا ة باسمك عند البكا والسهرْ
فاستغفروا ذنب من قالها ولم يتمّ قولهُ فاختصرْ

*

فلمّا كان النصف الثاني من القرن السابع عشر هبّ بين نصارى سوريّة

روح جديد حملهم على اتقان الدروس العربيّة وذلك اوّل تلك النهضة العجيبة التي نجتني من اثارها الجنيّة حتى يومنا هذا. وكان ابتداؤها في حلب الشهباء. وجبرائيل بن فرحات فضل سابق في هذا المضمار كما تشهد عليه اعماله التي وصفها حضرة الاب الفاضل القس يوحنا منش في العدد الاخير من المشرق. وله الديوان الشهير الذي يغني اسمهُ عن وصفه وقد ضمّنهُ طيّب الله ضريحهُ في مديح العذراء مريم قصائد وشذرات لا تقلّ عن ربع المجموع والشهرة هذا الديوان لا تنقل منهُ الّا ابياتًا قليلة تنويهًا بفضله فمن ذلك قولهُ في براءة العذراء من الخطيئة الاصلية:

سموتِ يا بتولةُ في العذارى ... على كل الانام عُلًى وفُقتِ
خُلقتِ دُرَّةً لا عيبَ فيها ... كانكِ مثلما شئتِ خُلقتِ

وقال في المعنى من قصيدةٍ واجاد:

أجيدي المدحَ ناظمتي اجيدي ... لمريمَ إنّما بحرُ الحُسُوبِ
إلهٌ خصّها دونَ البرايا ... ورقّاها الى أوجِ السُّمُوِّ
دعاها امّهُ والامُّ بكرٌ ... فيا فوزَ من هذا البلوِ
اتى منها إلهًا جلَّ قدرًا ... تعبًّا حلَّ في بُرجِ القُصُوِّ
براها ثُمَّ برّاها وأبرا ... ثُقاها التامَّ من أسرِ العُدُوِّ
فأولدها لهُ أمًّا وبكرًا ... بناسُوتٍ عليٍّ في العُلُوِّ
هيَ أيّنتهُ آدمَ الانسان لكن ... متى قد كان في حال السُّمُوِّ
ولم تعرف خطاء الجد اصلًا ... وهذا القُدسُ من ذاكَ الخُلُوِّ
دنا منها إلهٌ حلَّ فيها ... وهذا الطُّهرُ من ذاكَ الدُّنُوِّ
بولدِها اطمأنَّ الخلقُ طُرًّا ... ومَن بالسجنِ حسُّوا بالعُدُوِّ
فإني يا بتولةُ في العذارى ... نجيبُكِ في الرَّواحِ وفي الغُدُوِّ

ولهُ في قلب مريم الطاهر:

يا قلبَ مريمَ يابن الله منطبعًا ... أكرم بقلبٍ بنارِ الحُبِّ مطبوعِ
فأثّرت فيهِ بالمعنى فضائلهُ ... فألّفت بين مرئيٍ ومسموعِ

ولهُ ميميّتهُ الشهيرة التي ضمّنها كل معنى شريف يقول فيها:

لو كانَ للأفلاكِ نطقٌ او فمُ ... لترنموا في مدحكِ يا مريمُ
أنتِ التي وردَ الالهُ مؤنساً ... منها وفيها شأنها يتعظمُ
وبروحِ قدسٍ حازَ منها جسمَهُ ... متقدساً وبقدسهِ يتجسمُ
فبأي مقدارٍ أشبهُ عظمها ... حتى يُشبّهها الالهُ الاعظمُ
إن قلتُ شمساً فالكسوف يعيبها ... امّا جاها فكلَّ يومٍ يعظمُ
أو قلتُ بدراً فالخسوف يشينهُ ... امّا سناكِ فكلَّ يومٍ يضرمُ
أو قلتُ كاروبيم عرشِ العلا ... فسموُّهم بسموِّ شأنكِ يرغمُ
او قلتُ سارفيم طغمات الدجا ... لولا وليدكِ ما سروا وتظلموا
أو قلتُ طغمات الملائكِ كلهم ... لكنَّ سنامَ مع جمالكِ يظلمُ
لسنا نرى شبهاً يوازي حسنها ... الّا ابنها ذاكَ الالهُ الاعظمُ
لا غروَ أنَّ الابنَ يُشبهُ امهُ ... إنَّ اشبهَ الابنُ أمّهُ لا يظلمُ

وقد اشتهر في عصر فرحات احد مواطنيهِ وجاراهُ بالفضل والفضيلة بعد ان تتلمذ لهُ وتعقّب آثارهُ زيد الخوري نيقولاوس الصانع الذي نشرنا ترجمتهُ في احد اعداد سنتنا المنصرمة (ص ٩٧—١١١). ولهُ ايضاً في ديوانهِ الذي يتداولهُ الناس اقوال جميلة في السيّدة الطاهرة. منها قولهُ من قصيدة:

يا نور عرشِ الله انتِ صفوتهُ ... وخيرُ خلقٍ يرجّى نيلُ جدواكِ
كأنَّ مرآكِ مرآةُ الالهِ ترى ... أسنى بجوهرهِ في حسنِ مرآكِ
لن تنتهي قدرة الله العظيم ولكنَّ انتهت مذ خصت إبداعَ معناكِ
ان كان يُلدُ ابنُ الله ثانيةً ... يُرى شبيهكِ بل حاشاكِ حاشاكِ

ولهُ في وردية العذراء واسرارها الخمسة عشر:

وردية العذراء امّ الله قد ... جاءت بخمسةَ عشرَ سرّاً فائقا
فرحٌ وحزنٌ ثم مجدُ كلُّ سرّ ... يحتوي معنًى اكيداً صادقا
فتعبّدَنَّ بها لمريمَ نحطَّ بآل ... غُفران إمّا كنتَ فيها واثقا
وأطلبْ شفاعتها وقدّم لابنها ... بعد انسحاق الروح قلباً وامقا

ومنها ايضاً موشّحهُ وهاك دورهُ الاوّل:

اثني اشكو فواجعي الألم ... لم يعُدْ لي من يجلّد

زجَّ في جبلي بقاعِ الندَمِ والشَّجى مني بمَرَدْ
رَشَقَتْني شهوتي بسهمِ أورثَت قلبي لَدَدْ
غيرَ اني ارتجي في مريمَ صفوةِ الله الاحدْ
خصَّها اللهُ بأسنى النِّعَمِ عندَ ما منها وردْ

ومِمَّن اشتهروا ايضاً في حلب على عهد الطيب الاثر جرمانوس فرحات ومدحوهُ بشعرهم ونثرهم نعمة ابن الخوري توما الشاعر الحلبيّ الملكيّ الكاثوليكيّ الذي اثبت حضرة الفاضل الاديب القس جرجس منش ترجمتهُ في المشرق (٥ : ٣٩٦) . وفي خزانة مكتبتنا الشرقيَّة نسخة من ديوانهِ ترى فيها قصائد عديدة شائقة في مدح امّ النور ورد فيها ذكر جبلها الطاهر بلا دنس . ومِمَّا قالهُ في قصيدة طويلة انشدها في صيدنايا :

اكرم بها امـاً وهي بكرٌ وقد داتت لهـا الابكارُ في المشاهدِ
سمتِ الملائك والانام تقدماً فالكلُّ وافوهـا بجنة ساجدِ
جلَّت عن الاوصاف اذ فاقت على نعتِ البليغ ودرِّ نظم الناثرِ
بل ليس يوجد في الوجود لوصفها كفوٌ سوى الابن الوحيدِ الواحدِ
منهُ عليهـا لا يزال سلامهُ مترادفـاً بتواتر ونوادرِ

ولهُ ايضاً يشكر فضل البتول مضمِّناً :

تاقِ اني عن مديحكِ لم أَحِلْ وهواجسي قد ردَّدتهُ بفكرهـا
يا من خُلقتِ بريئةً من وصمة في بدء كونك بالحياة بسرها
فبفضلك نلنـا الخلاص ولم نكن لولاك الاَّ في الذنوب ووزرهـا
فلكِ ثناء المدح ما ابتغتِ من نعـائكِ الفضلى باوفى وفرهـا
والشكر ما جلَّت صفاتك في الورى عن ان يُفَاهَ بحمدها وبشكرها
فلأشكرنَّكِ ما حييتُ وان امتْ فلتشكرنَّكِ اعظمي في قبرهـا

ولهُ عدَّة قصائد يستنجد بالبتول ويطلب شفاعتها كقولهِ :

في يديكِ امَّ ربِّي اتقي سلمتُ روحي
فانقذيني من ذنوبٍ صرتُ فيها كالطريحِ
رحتُ فيهـا مستهامـاً مائلاً مع كلِّ ريحِ

فـدا قلبي جروحـاً في جروح في جروح
يـا لقومي مَن يجيري من قضا العدلِ المريح
ايس لي الأكِ ملجـا ارتجيـه في قروحي
جئتُ ارجو منكِ عفوًا مستجابـاً من سـيح
فاقبليني عبـد رقٍّ واقبلي مني مـديحي

وفي هذا الزمن عينهِ اشتهر في الشهباء شاعر آخر من طائفة الملكيين الكاثوليك ممَّن دافعوا عن ايمانهم لمـَّا اثار البطريرك الدخيل سلبسترس الاضطهاد على الكاثوليك. نريد ابراهيم الحكيم الحلبيّ الشاعر المطبوع من اسرةٍ شريفة لا تزال حتَّى اليوم معروفة بفضلها. ولدينا منهُ خبر رحلتهِ الى مصر في اواسط القرن الثامن عشر سننشرهُ قريباً في المشرق ان شاء الله. وممَّا ختم بهِ روايتهُ ابياتٌ قالها متغزّلاً في مديح مريم البتول:

تُرى لي حبيبٌ ان تَقُلْ مريمٌ لِمَا — تأى ذا الوفا حتى يقولَ لها لَمَا
لإفراط ما فيهِ من السقم والضنا — ومن رعبهِ طول الدياجي السُّها سَهَا
لقد ضرَّهُ ثقلُ الذنوب مع الوفا — ولم يُصْغِ سمعًا حين ربُّ النُّهى نَهَا
وقد أغفلَ الدَّاءَ الضالُّ اضالني — وعطَّى ولو لم يأتني برؤُها وهى
لقد عفتُ كلَّ الحبِّ من دون حبِّها — فكل ودادٍ ما عدا ودُّها دَهَا
فحسَّامَ ارجو في الانامِ مودةً — وقد زادَ وجدي دون احباجها جها
فيلوا اليها واملكوا العزَّ والسنا — فمن كان منسوبًا الى عزِّها زَهَا
لقد جُمعت فيها المحاسنُ كلُّها — فحقَّ ولم يُعْدَ يَسْعَ حسنًا نُهى
واذ لم يكن في الناس ندٌّ لحسنها — ظننَّا اباها البدرَ او أنَّها هُما
لذا حارت الالبابُ في حسن وصفها — ولم يقدر أن يُحمى ثنا فضلها لَمَا
اذا اسفرت اخفى ضيا الشمس نورُها — وادهشَ ابصارَ الورى ما جا جَا
فيا حبَّذا ذلي لديها وحبَّذا — دماي أنْ تشا قد لذَّ لي بَذْلها لَمَا
هي العروةُ الوثقى وهي الملجأُ الذي — يقينا اذا ما الخطب من ضدِّها دَهَا

ومن ادباء ذلك الزمان ايضاً شاعر آخر حلبيّ المنشإ عاش على عهد

الشماس عبدالله زاخر والخوري نيقولا الصائغ وراسلهما ثم رثاهما بعد موتهما. وهو انطون بيطار من طائفة الروم الملكيين الكاثوليك. وقد وقع في يدنا من نظمه شذرات ننشرها عند سنوح الفرصة. منها موشح قاله في ميلاد الياس بن جرجس عائدة الحلبي سنة ١٧٥٢. ختمه بهذين الدورين في مديح الطوباوية العذراء:

من أتى جبريل اهداها السلام ... وارتضت بالامر عن قلب سليم
كم أرتنا صُنع آيات عظام ... بالبتولية والسر العظيم
هذه هي سلطانة الرُسل الكرام ... من نشا في حجرها الطفل الكريم
ابنة الآب وامُ الابن ما ... عرسها إلاّ روح القدس
رزقها للأنبيا قد رُجا ... مذ رأى موسى لهيب القبس

هي ذات الفقر بل عين الملا ... في رضاها لذّ لي خبزُ المَلَل
ذكرُها المنبوطُ ما بين الملا ... تجدُ النوكَ به كلُّ المَلَل
وهواها خالصَ القلب ملا ... من هواها (كذا) ليس يشكو من ملل
فتيقّظها ونادي (كذا) مرعا ... احفظي مولودنا بالرّغم
وانشدِ افّهَ بتاريخٍ بما ... يُحفظ الطفل برب الحرس

هذا ما عثرنا عليه من اقوال شعراء القرن الثامن عشر. امّا في القرن التاسع عشر فاوّل من نبغ فيه فهو الشاعر الرومي الملكي الكاثوليكي المرحوم نيقولا الترك له ديوان كبير يتضمّن من كلّ فصول الشعر بابًا منهُ نسختان في خزانة كتبنا الشرقيّة. وقد راجعناهُ لعلّنا نجد فيه اقوالًا عن البتول فلم يخب املنا. فانّهُ كتب للوجيهين انطون صوصا وايوب نصرالله ابياتًا يهنئهما فيها بعيد نياح السيّدة. وهذا مفتتح القصيدة الاولى:

بيكمُ العيدُ البهيُّ الاجملُ ... والموسمُ السامي السعيد الافضلُ
عيدُ والدةِ الالهِ مباركٌ ... ومقدّسٌ فيهِ السرور الاكملُ
يا سعدَ مَن قد صام صوماً لائقًا ... في قربهِ فلهُ الجزاء المجزلُ
فليهنكَ المولى بهِ وكذا بهِ ... لا زلتَ تطوي والسلامةُ تشملُ

وقال في الثانية :

ياذا الجلال المفرد والمنقبات الخمسد
جنيك عبدٌ افضلٌ فيهِ اتقالُ البيد
تلك المطهّرةُ التي هي في السماء ممجّدة
سور النجا بحرُ الرجا امُّ الخلاص المنجّدة
بكرٌ الى سُبل الهدى والاستقامةِ مُرشدة
طوبى لنفسك حيث قد داست لها متبدة
ولك السرور بيدها والتهنئاتُ المسعدة

وقد اشتهر بعد نيقولا الترك شاعران آخران ملكيان عاشا في أيامهِ مدّة ومدحا مثلهُ الامير بشير الشهابي لكنهما سبقاهُ بشعرهما المطبوع زيد بطرس كرامة والشيخ ناصيف اليازجي وقد أكّد لنا الثقة انهما نظما في العذراء مريم ابياتاً لم تزل مخطوطةً . امّا ما طُبع من شعرهما فلم نجد فيهِ ضالّتنا المنشودة

وكذلك لا تجد في مآثر المرحومين مارون ونقولا النقاش منظوماً في العذراء مريم الاّ انهما ضمّنا بعض التراتيل التقويّة في مدحها لا تزال شائعةً بين الجمهور وهي مثبتة في المجموع المطبوع في مطبعتنا

ومن شعراء العصر الذين اكثروا من امتداح السيدة البتول الخوري الفاضل الطيّب الذكر ارسانيوس الفاخوري (راجع ترجمتهُ في المشرق ٣ : ٦٠٦) فانّ ديوانهُ المخطوط يحتوي نيفاً وعشرين قصيدة في والدة الاله . ولعلّهُ سبق الجميع في مدحها بعد اثبات عقيدة براءتها من الخطيئة الاصليّة . فمن ذلك موشّح يصف بهِ افراح ذلك العيد البهيج هذه بعض ادوارهِ .

وافت البشرى بما يولي الجزلْ بصدورِ الحكم من قاضٍ عدلْ
لاح شمسُ الحقّ والبُطلُ انصرمْ وهلالُ الشكّ وراءهُ العدمْ
واليقين اليومَ اضحى كالعلَمْ جالساً في العرش بالعزّ وقلْ

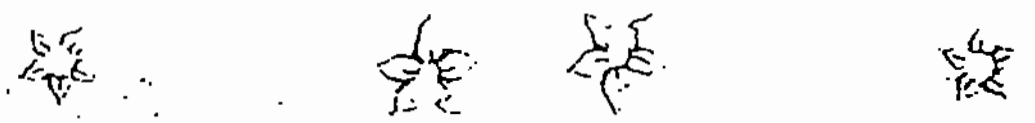

حدّد الحبرُ مقالاً وانثنى مبحثٌ عن مريمٍ ذاتِ البها
شبتاً للقول فيها انّها حُفظت من دنسِ منذُ الحَبَلْ
خصّها الله بكونٍ اقدسٍ وسمتْ طهرًا ببرِّ أنفسِ
وحباها فيضُ روح القدسِ لابنٍ اسّاً دعاها من أزَلْ
وافت البشرى لاكرامِ البتولْ بعروزِ الحكمِ من حبرٍ عقولْ
أنشطَ الالبابَ بل سرَّ العقولْ وكساها بهجةً ما قد حصلْ
ألهم الله النبيلَ الاعظما يؤسّسَ الناسَ اثباتاً بما
وال الايمان ذا الحكم انتمى والذي يعصاهُ يُرديهِ الحَبَلْ
يا لبكرٍ طهرُها تجّى الملا فناها لنبوم قد جلا
ما ترى يا صاحِ فيها كم حلا عِقدُ نظمٍ زانهُ درُّ النزلْ
يا عروس النشد قومي كلّلي عرسَ لبنان وجدًا سربلي
في علاها رتّلي بل هلّلي بنشيدٍ لا يحاكيهِ مَثَلْ
فهي عرشٌ فاق مجدًا للقدمْ وهي ذاك البابُ والطَّوْد العظيمْ
وهي تابوتُ لعهدٍ والكليمْ قد رأى شيئًا لها فوق الجَبَلْ
قِسْطُ منّ طور سينا والغمامْ وعصا هارون ذيّاك الامامْ
فُلكُ نوحٍ برج داود الهُمامْ جزّةٌ قد عمّ اجراها البَلَلْ
يا بتولًا قد اتتنا بالسلامْ بوّأتنا بالعلى اعلى مقامْ
جواها قد شفينا من سقامْ وبرينا من كلومٍ وشَلَلْ

وقال ايضًا في ذلك العيد:

فبشارة الإثبات للحَبَل النقيّ م بمريم العذراء سيّدة الملا
في انّ ذا الحبل الشريف مطهّرٌ من كل عيب ثم من دنسٍ علا
وبريئة من وصمةٍ وخطيئةٍ اصليةٍ والسر في هذا انجلى
سُرّت قلوب المؤمنين باسرهم وسرورها الاكوانَ طرًّا قد ملا
سنة الثمان لمائةٍ مع اربعٍ ألحق جما خمسين مع الفٍ تلا

ومن شعراء الازمنة الاخيرة الذين مدحوا مريم السيد الجليل الموحوم

جرمانوس الشمالي مطران حلب على الموارنة (راجع ترجمتهُ في المشرق ٥ : ٨٥٠). ففي ديوانهِ نشيدٌ فيها افتتحهُ بقولهِ :

قدّموا للبكر مريمْ قدموا الحب الثمينْ

ومنها :

انّما الامُّ الامينهْ عندها كنزُ المونهْ قرية الملجا المصونهْ برج داود الحصينْ

من دنا منها يُصانُ من نأى عنها يُهانُ فهي للجاني جنانُ أنبتت حبي الدفينْ

سوسنٌ بين القنادِ عرفها في كل نادِ ذكرها يحلو لشادِ فانشدوها هاتفينْ

جنة ضمن الحمارى قدمت خمرَ العذارى سكرها صحو السكارى شكرها خبز البنينْ

ابنة الآب السماوي امُّ إبنهِ المساوي يا عروس الروح داوي روحنا في كل حينْ

صانها المولى بريّهْ زانها بين البريّهْ فاغمنوها بالتحيّهْ وافرحوا يا عابدينْ

ومنهم ايضاً شاعر مطبوع اشتهرت قصائدهُ في لبنان وهي حتى الآن لم تنشر بالطبع ألا وهو الخوري المأسوف عليهِ يوحنا رعد الغزيري وقد تلطّف اهلهُ الكرام فارسلوا لنا احدى قصائدهِ في مريم العذراء بناها على معنى آية سفر الزامير (٤٤ : ١٣) : « لوجهك يصلّي كل اغنياء الشعب » وها نحن نختار منها الابيات التالية :

يا كرامَ الحيّ وآلَ المالي حدّثوا في امجاد ذات الجمالِ

وانظموا في مديح فخر العذارى شعركم من مستفخرات اللآلي

أشغل الكون مدحُها وثناها مذ غدا سابحاً بحر الزوالِ

ملأ الارض والسماء سناها فغدا كل ما نرى كالاثالي

كلُّ مدحٍ في غير مريم لغوٌ كل حسنٍ في غيرها كالخيالِ

قد تجلّت يوماً على طور قلبي فعلا وأناف كلَّ الجبالِ

تيّمتني اوصافها اشغلتني عن سواها فها انا لا ابالي

ومنها: صورة الحسن والفضائل طرًّا ما لها قطُّ في الملا من مثالِ
صفوة الخلق وجا الخلق يزهو ربّة المجد في النسا والرجالِ
قرّة العين مشتهى كلّ قلبٍ ورجانا من سالف الاجيالِ
امّ يسوع امّ ربّي وامي بهجتي غبطتي وروحي ومالي
ليت شعري باي لفظٍ بديع انظم المدح والثنا وأغالي
لقّنوني يا ساكنين حماها بعض ما تنشدونها في الاعالي
اتحفوني من لفظكم بنصيبٍ ان وصف العذراء يعلو مقالي
عدّدوها يا فائزين بنورٍ من سناها يحلو قيام الليالي
عدّدوها يا من وصلتم لديها ورأيتم ما لا يحيطُ ببالِ
يا فتاةً جلاياها الشمس حقًّا تردهي في عين الملي بالدلالِ
فقتِ قدرًا في العالمين جميعًا وعلوتِ الاملاك مع كل عالِ
داركي من التي عليكِ اتكالًا يا رجاء النفوس كوني اتكالي

وكذلك جارى العلمانيّون ارباب الاكليروس في مديح مريم فحلّوا دواويتهم بما نظموهُ في مناقبها. من ذلك ابيات وردت في ديوان المرحوم سليمان بن ابراهيم صوله الروميّ الملكيّ (المتوفى سنة ١٨٩٩) كتبها على صورة السيدة:

هذي البتول التي حلّ الاله بها فاطلب شفاعتها يا اجا الجاني
هذه التي اختارها عرشًا لقدرتهِ أَلّ باري وأنحزى بباهي شأنها الثاني
هذه التي من ظلام الجهل تخرجني مبرّرًا قبل ادخالي بأكفاني
ما كنت احسبُ لولا حسنُ صورتها انّ الاله اتى في زيّ انسانِ
يا دوحةً الله يا بحر المراحم يا غوثَ الخلائق من قاصٍ ومن دانِ
مالي سوى حبّكِ المغروس بي شرفٌ يا اشرفَ الخلق يزري كلّ شيطانِ
حاشا حنوكِ ان يرضى بتهلكتي وبحرَ جودكِ ان يقضي بحرماني

ونختم هذا النظر في شعر اهل عصرنا بابيات نقتطفها من ديوان المأسوف عليهِ عزتلو الشاعر الشهير حنّا بك الاسعد بن ابي صعب فمن قولهِ:

مليكة طهرٍ مذ تناهى عفافها لدى الله رقاها مقامًا وسؤددا

تسامت على الاملاك قدرًا ورفعةً ... وفاقت بوصفٍ جاء بالكون مفردا
هي البكر ثم الامُّ لابن البتولِ تُرى ... وعرسٌ لروح الحقّ تُدعى لدى الندا
تفوق النهى مدحًا وتسمو السُّهى عُلًا ... وتخبر ذُكا نورًا وبصري بها الندى

وقال فيها قصيدتهُ الشهيرة التي مطلعها:

ما لي لسانٌ ولو فرَّضتُ اشعارا ... ولا جنانٌ ولو جوَّدتُ افكارا

الى ان قال:

ما الخَلقُ ما الكون ما الافلاك قاطبةً ... ما السحبُ ما القطر ما قد فاض مدرارا
يأتون مدحًا لمن جاءت موحَّدةً ... بين البرايا بوصفٍ بالملا سارا
عذراء طاهرةٌ بكرٌ ووالدةٌ ... اسمٍ به لقبًا فيهِ النُهى سارا
تُفاخر الشمسَ في طهرٍ سما شرفًا ... وخرَّت لطلعتها الدين أنوارا
وضرَّأت فلكَ التقوى فضائلُها ... وطهرت في سناء الطهر اطهارا
عينُ البرارة ذات البر كنز جدًى ... بحر الندى صيِّر الاشرارَ ابرارا
أمٌ بلا دنسٍ ما مسَّها بشرٌ ... شمس التقى لن ترى في الشمس اكدارا
يمُّ المواهب غيث الرَّفد من قِدَمٍ ... كم سحَّ في الكون تقيًا وامطارا
لم يأتها من بنا جدِّ الورى خطأٌ ... بريئةٌ لن ترى التدنيس ادهارا
سليمةٌ لن يمسَّ العيبُ مدحتها ... كريمةٌ فتح الاكوانَ افخارا
سازت من الله خلقًا طبق بنيتها ... هل يولد المرء في الدنيا كما اختارا
نالت مقامًا من المثأن ليس لهُ ... بندٌ وزانت من الجنَّات أخدارا

وختمها بقوله:

هي ابنة الآبِ أمٌ لابنهِ دُعيَت ... عرسًا الى الروح لن تختال انكارا
اقامها الله غوثًا للانام ومن ... قد جاء مستشفعًا لم يأتِ أخطارا
يا من تسامت لدى الكاثوث في صفةٍ ... عجيبةٍ ادهشت عقلًا وابصارا
رقِّي الينا ورقِّينا التضائل كي ... نلقى المهيمن يوم الحشر غفَّارا
لكِ السلام من الرحمان ما طلعت ... شمسٌ وابدى الورى للحق تذكارا

هذه نبذٌ قليلة جمعناها من دواوين الشعراء النصارى دون ان نتعرَّض لأعمال الذين لم يزالوا في قيد الحياة طالبين من العذراء ان تُطلق السنتنا على مدحها وتهبنا ان نطبع في قلبنا حبَّها ونجعل قدوتنا امثالها وفضائلها